إسهامات الهروي في تطور الفكر الجغرافي العربي في القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد

د .عبدالجبار حامد(*)

حياته

الشيخ علي بن أبي بكر بن علي، أبو الحسن الهروي أصلا، الموصلي مولداً ومنشأ، الحلبي الوفاة، السائح المشهور[1]، ولد في الموصل سنة (542هـ / 1147م)[2]، وكان والده خرّاطاً، لذلك يعرف بابن الخرّاط[3]، ولا شك أن والده كان يعمل بمهنة الخراطة في الموصل، لأنه سكنها حتى وفاته ودفن فيها[4]، ولأن الهروي نفسه من مواليد الموصل، مما يشير إلى أن أبيه قضى شطراً كبيراً من

(*) قسم التاريخ ـ كلية الآداب / جامعة الموصل.

(1) ابن الشعار، عقود الجمان، مخطوط ما يكروفلم، كلية التربية، جامعة الموصل، 5 / ورقة 19ب؛ وانظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، (بيروت: 1977)، 3 / 346؛ تاريخ ابن الفرات، تحقيق: حسن محمد الشماع، دار الطباعة الحديثة (بصرة: 1970)، م 5 جـ1 / 158؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، (بيروت: د/ت) م3جـ5 /49.

(2) ابن الشعار، عقود الجمان، 5 / ورقة 19ب.

(3) نفسه، 5/ ورقة 19ب.

مهنة الخراط: وهو الذي يقوم بصقل الورق أو الخشب. (ابن منظور، لسان العرب، تصنيف: يوسف خياط، دار لسان العرب، بيروت: د/ت، 814/1).

(4) الهروي، الإشارات إلى معرفة الزيارات، تحقيق: جانين سورديل، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، (دمشق: 1953)، ص، 7.

حياته فيها، لكن المصادر سكتت عن ذكر نسبه الذي يرجع إليه بشكل تفصيلي، وليس لدينا معلومات عن ذلك. وكانت وفاة الهروي بمدينة حلب سنة (611هـ / 1215م) ودفن فيها.

جدير بالذكر أن والده كان من كبار الصالحين، يذكر ابنه أنه بقي أربعين سنة يصوم نهارها ويقوم ليلها[5]، لذلك فقد عدّ بمصاف المشائخ والصالحين الموجودين في الموصل، أمثال المعافى بن عمران والفتح الموصلي وقضيب ألبان الموصلي وغيرهم[6]، وقد عاش الهروي في غمرة الحروب الصليبية التي كانت تعصف بالبلاد العربية، وجاءت بعض مؤلفاته كرد فعل لتلك الظروف كما سيرد ذكره.

ثقافته

إن استقراء النصوص الواردة في المصادر وفي مؤلفات الهروي نفسه تشير إلى أنه كان من ذوي الثقافة والمعرفة، فضلاً عن معرفته بعلوم الحديث وعلوم اللغة العربية، وكان لذلك تأثير كبير على كتاباته ومؤلفاته من حيث المنهجية والأسلوب والوصف والاهتمام بكل كبيرة وصغيرة كما سيرد لاحقاً.

فمن المؤشرات على ثقافته الواسعة أنه كان ذو معرفة باللغة العربية وعلومها وحروفها بحيث أنه كان يميز ويعجب بالمبدعين في هذه اللغة، فقد ذكر عن اهتمامات أحد الرجال في البصرة باللغة العربية، فقال: "واجتمعتُ بالبصرة برجل شريف اسمه عمران بن سالم... ورأيت من هذا الرجل صنعة الكتابة ما لم أره من أحد غيره، وذلك أنه استخرج من حرف الكاف حروف الكتابة جميعها وهي

(5) نفسه، ص 71.

(6) نفسه، ص 70 – 71 .

تسعة وعشرون حرفاً، كل حرف منها قائم بذاته، وزاد عليها ثمانية أحرف..."[7] مما يشير إلى معرفة باللغة العربية وحروفها. كما كانت له معرفة بلغات غير العربية كا لرومية، فقد أشار أثناء حديثه عن بلاد الروم، إلى أحد المواضع العجيبة المسمى "سلطان وَكي" بقوله: "ويقال له أيضا الثيرما بالرومي"[8]، فضلاً عن استقائه معلومات من أناس غير عرب[9].

ويذكر ابن الشعار أن الهروي سمع الحديث على كبار الشيوخ والعلماء أثناء طوافه في البلاد[10]، ومن ذلك أنه سمع بمكة أحاديث من الشيخ أبي المعالي عبدالمنعم بن أبي البركات، عبدالله العزاوي وحدّث بها[11]، حتى وصلت سماعاته على سبعين شيخاً من سبعين بلداً[12] وهذا يُفَنّد ما قاله كراتشكوفسكي من أن تجوال الهروي لم يكن في طلب العلم أسوة بعدد من الجغرافيين، بل كان لزيارة أضرحة الأولياء وأصحاب المقامات[13]. ونقل القول نفسه عبدالرحمن حميدة من دون أن يذكر المرجع الذي نقل عنه[14]، فضلاً عن ذلك فقد كان مطلعاً على التوراة، يورد منها نصوصاً ومقتطفات كلما دعت الحاجة في مؤلفاته، كما كان

(7) نفسه، ص 82 ـ 83.

(8) نفسه، ص 58.

(9) نفسه، ص 31.

(10) عقود الجمان، 5 / ورقة 19ب.

(11) ابن الصابوني، تكملة إكمال الإكمال، تحقيق: د. مصطفى جواد، مطبعة المجتمع العلمي العراقي، (بغداد: 1957)، ص 205.

(12) الإشارات، ص 100.

(13) تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، (القاهرة: 1963)، ق1/ 320.

(14) أعلام الجغرافيين العرب، دار الفكر، (دمشق: 1969)، ص 382.

يشرح بعض ما يورده مثال ذلك ما أورده عن الإشارات التي وردت في التوراة في حق الأنبياء موسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم)، مع شرح وتوضيح لتلك الإشارات وما هو المقصود منها[15]، وهذا يعد عاملاً مضافاً إلى سعة أفقه واطلاعه وعمق ثقافته.

ولا يخفى أن رحلاته الواسعة التي سيرد ذكرها لاحقاً قد أكسبته خبرة واسعة كما تدل على شغفه بالعلم والمعرفة ورغبته في اكتشاف المجهول[16]، وقد اثبت ذلك في مؤلفاته، وكان لهذه المعرفة والثقافة أثرها في تقربه من الأمراء وكبار رجال الدولة، أمثال الملك الظاهر بن السلطان صلاح الدين صاحب حلب[17].

خطبه

وعن نتاجاته الثقافية ما ذكره عنه المؤرخون من أن له خطباً وأشعارا تؤكد اهتماماته باللغة والمعرفة، فقد ذكر ابن الشعار عند ترجمته له، بأنه قد رأى للسائح الهروي خطباً من إنشائه، وكلاماً منثوراً وقصائد شعرية[18]، ويؤكد ذلك ابن خلكان مشيراً إلى كثرة كتاباته ونتاجاته وأنه رآها في بلاد كثيرة حتى ضرب بها المثل لكثرتها، وقد افرد كتاباً لهذه الخطب وسمه بـ "الخطب الهروية"[19]، يقول الذهبي

(15) الإشارات، ص 22.

(16) الهروي، التذكرة الهروية، تحقيق: مطيع المرابط، منشورات وزارة الثقافة، (دمشق: 1972)، ص16 (مقدمة المحقق).

(17) ابن خلكان، وفيات، 3 / 347.

(18) عقود الجمان، 5 / ورقة 20 أ.

(19) وفيات، 3/ 346؛ وانظر: اليافعي، مرآة الجنان، مؤسسة الاعلمي، ط2، (بيروت: 1970)، 23/4؛ تاريخ ابن الوردي منشورات المطبعة الحيدرية، (النجف: 1969) 190/2؛ شذرات الذهب، م3 ج5/ 49.

عنه أنه قدّمه للخليفة الناصر لدين الله المتوفى (622هـ / 1225م)[20]، وقد وجدت بعض من تلك الخطب مكتوبة على أبواب ومرافق مدرسته وتربته ورباطه[21].

منحه الإجازات العلمية

وتأكيداً لعلميته فقد أورد المؤرخون إشارات تفيد بأنه كان يمنح الإجازات العلمية في علم الحديث، ومعلوم أن الإجازة العلمية شهادة لا تمنح إلا من قبل شيخ له مكانته العلمية، مما يؤكد أهميته في تلك المجالات، يدل على ذلك أن الملك الظاهر ابن صلاح الدين الأيوبي صاحب حلب قد أنشأ له مدرسة في حلب[22]. كما حصل على إجازة منه ابن الصابوني (ت 680هـ / 1281م)، وقد كتبها له سنة (608هـ/ 1211م)[23]، وكذلك حصل على إجازة منه أيضا الشيخ عبدالعظيم المنذري[24].

علومه الأخرى

أما ما قيل عن معرفته ببعض العلوم الأخرى غير علمي الحديث واللغة، فقد ذكر أنه كان يعرف علم السيمياء كما يقول ابن خلكان، وأنه بواسطة هذا العلم استطاع أن يتقرب من الملك الظاهر[25]، في حين ذكر ابن الوردي أنه كانت له

(20) ابن الصابوني، تكملة إكمال الإكمال، ص 206، هامش(1).

(21) التذكرة الهروية، ص 127 ـ 129.

(22) ابن خلكان، وفيات، 3 / 347.

(23) ابن الصابوني، تكملة إكمال الإكمال، ص 205.

(24) تاريخ ابن الفرات، م5 ج159/1.

(25) وفيات، 3 / 347؛ وانظر: اليافعي، مرآة الجنان، 22/4.

السيمياء: يطلق على ما هو غير الحقيقي من السحر، وحاصلة أحداث مثالات خيالية في الجو لا وجود لها في الحس (كشف الظنون، 2/ 1020).

معرفة في الشعبذة والسيمياء والحيل[26]، ونقل بعض المؤرخون المحدثون هذه الروايات تباعاً أمثال سليمان الصائغ وعبدالرحمن حميدة[27]، في حين سكت الكثير من المؤرخين القدامى الذين جاءوا بعد ابن خلكان وابن الوردي عن وصفه بهذه الصفات[28].

والروايات الآنفة الذكر يشك في صحتها بسبب:

1. لم يشر الهروي في مؤلفاته التي وصلت إلينا أنه كانت لديه معرفة بمثل هذه الأعمال.
2. أن ابن الشعار (ت654هـ / 1256م) – وهو قريب عهد به – لم يذكر أن للهروي مثل هذه الأعمال[29].
3. لم تشر المصادر التي ذكرت ذلك عنه إلى عمل واحد من أعمال السحر والشعبذة يمكن أن ينسب إليه.
4. أنه كان محدّثاً دَرَسَ على كبار الشيوخ، ثم منح الإجازات العلمية – كما مر ذلك – وهذا يتنافى مع كونه يعمل في السيمياء والشعبذة.
5. يذكر المؤرخون أنه كانت له نزعة صوفية وفيه فضيلة[30] وهذا يتناقض مع عمل السحر والشعبذة.

---

(26) تاريخ ابن الوردي، ص 190.

(27) انظر: تاريخ الموصل، المطبعة الكاثوليكية (بيروت: 1928)، 95/2، أعلام الجغرافيين العرب، ص 383.

(28) انظر: تاريخ ابن الفرات، م5 جـ1 / 158 ـ 159؛ شذرات الذهب، م3 جـ5 /49.

(29) انظر: عقود الجمان، 5/ ورقة 19ب، 20أ.

(30) اليافعي، مرآة الجنان، 4 / 22، وانظر: زيادة، نقولا، الجغرافية والرحلات عند العرب، ط3، الأهلية للنشر والتوزيع، (بيروت: 1982)، ص 156.

6. يبدو أن تقربه من الملك الظاهر لم يكن بسبب معرفته للسيمياء، وإنما بسبب شهرته العلمية، لأن المدرسة التي أنشأها له هي لتدريس الفقه الشافعي كما يقول ابن الصابوني[31] وليس لعمل الحيل والسيمياء. فهو لم يكن صوفياً متسولاً من أجل الحصول على المال ليقيم به أوده أثناء رحلاته مستغلاً معرفته بالسحر وضروب المخاريق كما يقول كراتشكوفسكي[32]، ومن نقل عنه دون تمحيص[33]، وإنما كان سائحاً محباً للاطلاع والمعرفة[34] لقي الحظوة عند الأمراء والخلفاء أمثال الناصر لدين الله العباسي والملك الظاهر بن صلاح الدين بسبب معرفته العلمية، بدليل أنه صنف كتاب (الإشارات) بناء على طلب من رسول الخليفة الناصر، نظراً لما فيه من ذكر للأبنية والآثار والعجائب واكتشاف مجاهيل الأقاليم[35]، فهو مصنف بارع قرن تصوفه بطلب العلم وبزيارة الأولياء والشيوخ والصالحين، وموّثق للمعلومات الجغرافية والتاريخية عن طريق زيارته لمناطق واسعة من المعمورة، معتداً بنفسه متجنباً التقرب من الأجانب لغرض مصلحة أو منفعة شخصية، بدليل رفضه مقابلة (الانكتار) ملك الفرنج (ريجارد قلب الأسد) سنة (588هـ / 1192م) الذي حرص أن يتحدث إليه ويراه، ووعده بإعادة ما أخذه منه من الكتب، فضلاً عن إكرامه إن اجتمع به[36]، وهو عدو العرب والمسلمين، في الوقت الذي كان يلتقي مع رسل الخلفاء العباسيين ومع

(31) تكملة إكمال الإكمال، ص 205.

(32) تاريخ الأدب الجغرافي، ق1 / 321.

(33) حميدة، عبدالرحمن، أعلام الجغرافيين، ص 383.

(34) انظر: ابن خلكان، وفيات، 3/ 346.

(35) الإشارات، ص 1 ـ 3؛ ابن خلكان، وفيات، 3 / 347.

(36) الإشارات، ص 3، 30.

القادة العرب أمثال أبي القاسم بن حمّود بن الحجر الذي يرجع نسبه إلى الخليفة عمر بن عبدالعزيز الذي التقى به في صقلية[37].

مذهبه

لم تشر المصادر إلى مذهبه، ولكن من خلال استقراء النصوص يتبين أن السائح الهروي شافعي المذهب بدليل:

1. ما ذكره الصابوني من أن الهروي سكن حلب وعمّر بها مدرسة لأصحاب الشافعي (رضي الله عنه)[38] ومعروف أنه في الأعم الأغلب يكون مدرسو هذه المدرسة هم على المذهب الشافعي ومنهم الهروي، لا سيما إذا علمنا أن هذا المذهب انتشر بشكل واسع في بلاد الشام.
2. أن الذي بنى له المدرسة في حلب هو الملك الظاهر بن صلاح الدين[39]، ومعروف أن السلطان صلاح الدين الأيوبي وعائلته هم على المذهب الشافعي[40]، وهذا دليل آخر على أن المدرسة هي لتدريس الفقه الشافعي وأن مدرسوها على المذهب نفسه.

ميوله السياسية

يظهر من خلال كتاب (الإشارات) للهروي نفسه أن ميوله (عباسية) ونزعته

(37) نفسه، ص 55.

(38) تكملة إكمال الإكمال، ص 205.

(39) ابن خلكان، وفيات، 3 / 347.

(40) جودة، صادق احمد داؤد، المدارس العصرونية في بلاد الشام، ط1، مؤسسة الرسالة، (بيروت: 1986)، ص 34.

عربية وذلك واضح من خلال ما ذكره في معرض حديثه عن تأليفه الكتاب حيث وصف الناصر لدين الله بأنه: "إمام المسلمين وخليفة الموحدين وأمير المؤمنين وابن عم سيد المرسلين"[41]، ثم يضيف ذاكراً محاسنه بقوله: "أنه الذي رفع المظالم وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وأقام حدود الله وأحيا سنة رسول الله - وعمّر الشريعة وأظهر الصنيعة"[42]، كما أنه صنف خطباً قدّمها للناصر، مما حدا بالخليفة أن يولّيه الخطابة بحلب فضلاً عن امتيازات أخرى منحها إياه بتوقيع رسمي، اعتبرت شرفاً له[43]، مما يشير إلى العلاقة الوثيقة بينه وبين الخلافة العباسية، على الرغم من أنه كان يعيش في حلب وفي كنف الأيوبيين.

مؤلفاته

صنف الهروي عدداً كبيراً من الكتب حوَت أخبار رحلاته ومشاهداته وجولاته الكثيرة، إلا أن أغلبها كان مصيرها الضياع بسبب غرق قسم منها، ونهب القسم الآخر من قبل الفرنج أثناء جولاته ورحلاته، فقد ذكر ذلك في مقدمة كتاب (الإشارات) إذ قال: "... فإن كتبي أخذها الانكتار ملك الفرنج..."[44]. وكان ذلك سنة (588هـ / 1192م)[45]، لكنه لم يذكر لماذا وأين أخذت تلك الكتب، ثم يضيف في مكان آخر من (الإشارات) أنه دوّن معلومات عن مكة والمدينة في كتبه التي

(41) الإشارات، ص1.

(42) نفسه، ص 2.

(43) ابن الصابوني، تكملة إكمال الإكمال، ص 206 (هامش ـ 1 -).

(44) الإشارات، ص 3.

(45) نفسه، ص 30.

غرقت مما سبب ضياع تلك المعلومات[46]، وفي إشارات أخرى يذكر أنه ضاعت منه أخبار ومعلومات عن بيوت الفراعنة التي رآها بنفسه ودوّنها في كتبه التي غرقت، ومعلوم أن غرق كتبه جاء بسبب كثرة تنقلاته ورحلاته البحرية، وعلى الرغم من ذلك فقد بقي البعض منها بعد وفاته تخلد ذكراه، ومن هذه الكتب منها ما وصلت إلينا كاملة وفيها من المعلومات ما يعكس حياة الهروي (كالإشارات) ومنها ما وصلت إلينا أسماؤها فقط عن طريق كتابه (الإشارات)، أو ذكرها المؤرخون الذين ترجموا للهروي، وقد أصابها الضياع أيضا، حيث فقدت مع ما فقد من تراثنا العربي نتيجة للأحداث التي مرت على الأمة العربية، ويمكن إجمال تصانيفه على النحو التالي:

1. **"كتاب الإشارات إلى معرفة الزيارات"** وهو من أهم ما وصل إلينا من مؤلفاته ويبدو أنه قد صنفه بعد ما تعرضت كتبه للغرق والضياع لأنه يشير إلى فقدانها في هذا الكتاب[47]، وقد أشار إليه المؤرخون القدامى أمثال ابن الشعار وابن خلكان واليافعي[48]، وكان السبب في تأليفه له – كما يذكر في مقدمته – بناء على طلب رسول الخليفة العباسي الناصر لدين الله لغرض توثيق ما شاهده أثناء رحلاته من العجائب والأبنية والعمارات والأصنام والآثار، وقد جاءت هذه الموافقة بعد أن رفض نفس الطلب من أصدقائه وخلاّنه[49]، وقد عنيت بحقيقة ونشره جانين سورديل.
2. **"التذكرة الهروية في الحيل الحربية"** ويعد من كتب السياسة وفنون الحرب،

(46) نفسه، ص 86.

(47) نفسه، ص 3، 30.

(48) عقود الجمان، 5 / ورقة 20 أ؛ وفيات الأعيان، 3 / 347؛ مرآة الجنان 4 / 23.

(49) الإشارات، ص1.

وما يحتاج إليه الملوك في سياسة الرعية وواجباتهم في كيفية حفظ بلادهم، وهو في أربعة وعشرين باباً، وقد حققه مطيع المرابط، وجاء الكتاب ليعالج ظروف تلك المرحلة التي تتعرض فيها البلاد لهجمة الصليبيين، فكان الهادي والمرشد لولاة الأمور آنذاك[50].

3. **الخطب الهروية** : أشار إلى تلك الخطب ابن الشعار بقوله: "ورأيت له خطباً من إنشائه وكلاماً منثوراً وشعراً[51]. في حين ذكر الكتاب كل من ابن خلكان واليافعي وابن العماد الحنبلي[52] وغيرهم. مما يدل على شهرته وفائدته، ويتضمن مجموعة من المواعظ والخطب، نقش قسم منها على أبواب مدرسته وتربته[53]. ويبدو أن هذه الخطب هي التي قدمت للخليفة العباسي الناصر لدين الله – كما ورد أنفاً، وقد نشرت مع كتاب "التذكرة الهروية في الحيل الحربية".

4. **"منازل الأرض ذات الطول والعرض"**، ورد ذكره في كتابه الآخر (الإشارات) وقال عنه مؤلفه: بأنه كتاب واسع فيه الكفاية لمن يريد أن يستزيد، فقد ذكر فيه بالتفصيل زيارته لكل بلد وما فيها من العلماء والأولياء والصالحين والمشهورين، كما أورد فيه ما سمعه من الأحاديث النبوية والأخبار المروية ممن سمع عنهم من الشيوخ الذين بلغ عددهم سبعين شيخاً في سبعين بلداً[54]، وقد ذكر اسم هذا

(50) التذكرة الهروية، ص 26، 13، 14.

(51) عقود الجمان، 5/ ورقة 20 أ.

(52) وفيات، 3/ 347؛ مرآة الجنان، 4 / 23؛ شذرات، م3 ج5 / 49.

(53) التذكرة الهروية، ص 24 – 25.

(54) الإشارات، ص 100.

الكتاب أيضا ابن الشعّار[55] كما أورده صاحب كشف الظنون وهدية العارفين[56].

5. **كتاب "معيار الزمان في معاشر الإخوان"**، ورد ذكره في كتاب التذكرة الهروية للمؤلف نفسه، إلا أنه لم يصل إلينا، ويبدو أنه من كتبه التي فقدت[57].

6. **"العجائب والآثار والأصنام"** يبدو أن هذا الكتاب من الكتب المهمة عند مؤلفه، وأنه قد وضع فيه معلومات كثيرة، لأنه أشار إليه في مواضع عدة من كتابه (الإشارات) وكثيراً ما كان يحيل القارئ إليه من اجل الاستزادة والاطلاع[58]. فقد ذكر فيه الآثار التي اطلع عليها من أصنام وصور وكتابات لا سيما الآثار الفرعونية[59]، كما وصف فيه المساجد ومنائرها وأطوالها وعدد درجها والبيمارستانات وغير ذلك[60]، كما وصف فيه الكنائس وما بها من هياكل وأبواب وعجائب وآثار وصور[61]، إلا أن الكتاب لم يصل إلينا علماً أنه صنفه بعد أن فقدت كتبه التي غرقت ونهبت لأن الإشارة إليه تأتي بعد الإشارة إلى فقدان كتبه[62]، وربما يكشف المستقبل عنه.

7. **كتاب "الأصول"** ذكره صاحب هدية العارفين[63] إلا أنه لم يصل إلينا.

---

(55) عقود الجمان، 5/ ورقة 19 ب.

(56) حاجي خليفة، 2/ 1827؛ البغدادي 1/ 705.

(57) التذكرة الهروية، ص 24.

(58) انظر: ص 34، 40، 41، 44، 49، 50، 57، 59.

(59) الإشارات، ص 34، 40، 41، 44.

(60) نفسه، ص 49، 50.

(61) نفسه، ص56.

(62) انظر مثلاً: ص 41.

(63) البغدادي، 1 / 705.

8. **كتاب "الرحلة"** ذكره البغدادي في هدية العارفين، وذكر أنه يتكون من مجلد واحد وأنه اشتمل على ذكر جميع بلاد الإسلام وبلاد الفرنج[64] ويبدو أنه شبيه بكتاب (الإشارات) من حيث المضمون والمحتوى، ويشير زكي محمد حسن إلى أن هناك نسخة مخطوطة في دار الكتب المصرية بعنوان "رحلة أبي الحسن بن أبي بكر بن علي الهروي الموصلي" تمت كتابتها سنة (602هـ / 1205م)[65]، وعلى الرغم من وجود الشبه في التسمية بين الكتابين، إلا أن المخطوط التي ذكرت هي غير كتاب (الرحلة) الذي ذكره البغدادي، وإنما هي كتاب (الإشارات) نفسه لأنها احتوت على نفس المعلومات التي وردت في (الإشارات)[66]، كما أن صاحب هدية العارفين ذكر كتاب (الإشارات) وكتاب (الرحلة) كل على حدة، مما يشير إلى اختلاف كل منهما عن الآخر.

9. **كتاب "زيارات الشام"** ورد ذكره في هدية العارفين[67] ولم يذكر أي شيء عن محتواه، كما أنه لم يصل إلينا. وبذلك تكون كتب الهروي قد شملت محاور عدة أبرزها:

أ. السياحة والرحلات والزيارات، وهي اكبر المحاور.

ب. ما يخص الحروب وفنونها والسياسة والحكم[68].

جـ. اللغة والأدب والمواعظ.

---

(64) 1 / 705.

(65) الرحالة المسلمون، ص 90.

(66) نفسه، ص 90 – 91.

(67) البغدادي، 1 / 705.

(68) التذكرة الهروية، ص 27 (مقدمة المحقق).

وستتم دراسة كتاب (الإشارات إلى معرفة الزيارات) نظراً لأهميته، وأنه يهد نموذجاً لمؤلفاته الأخرى.

مصادرة في الجغرافية والرحلات

استقى الهروي معلوماته من مصادر عدة في تدوين مواضيع مؤلفاته ويمكن تقسيمها إلى قسمين أساسيين:

الأول: مصادر اعتمد عليها في تدوين معلوماته.

الثاني: مشاهداته ومعايناته أثناء رحلاته وجولاته.

بالنسبة للقسم الأول فإن تلك المصادر على نوعين:

أ. **مصادر مكتوبة:** استقى منها معلومات أو استشهد بنصوص منها، لتأكيد معلومة معينة، وكانت ابرز تلك المصادر المكتوبة (القرآن الكريم) و (التوراة)، إذ كان يستشهد بآيات من القرآن الكريم لتأكيد عائدية بعض الآثار التي زارها، فمثلاً عندما زار الكهف الذي ورد ذكره في القرآن الكريم، يستشهد بالآيات التي تناولت قصة أصحاب الكهف من اجل تأكيد عائدية هذا المكان لأهل الكهف[69]، إذ قال: قال الله عز وجل في كتابه العزيز ووصفه بقوله: "وترى الشمس إذا طَـلَـعَتْ تزاورُ عن كهفهم ذات اليمين وإذا غـرَبَتْ تقْرِضـُهُم ذات الشمالِ وهم في فجوة منه..."[70]، ومثل ذلك يتكرر في كتاباته.

أما بالنسبة للتوراة فكانت مصدره الآخر الذي يستشهد به لغرض التوثيق أو التوضيح أو التصحيح كأن يقول: "وقرأت في التوراة في السفر الأول والجزء

(69) الإشارات، ص 60.

(70) الكهف، الآية: 17.

الثاني"[71]، وكقوله: "والإشارة في التوراة في حق موسى وعيسى ومحمد (صلى الله عليه وسلم)"[72]. ثم يذكر بعضاً من تلك الإشارات، وعندما يشير إلى رواية سمعها من أهل الأندلس كقولهم: إن البئر التي في جامع قرطبة حفرها المسيح والحواريون معه، يصحح ذلك بقوله: إن المسيح لم يتعد مصر، ويضيف: "وقرأت الأناجيل الأربعة فلم أجد أن المسيح دخل بلاد المغرب"[73]. إلا أنه لا يوجد ما يشير إلى ان الهروي قد اعتمد على مصادر من سبقهُ من الرحالة والجغرافيين.

ب. **مصادر شفهية:** اعتمد فيها على مقابلته للأشخاص في المناطق التي زارها حيث استقى منهم المعلومات، وكذلك من خلال لقائه بعدد من الشيوخ، فعندما يتحدث عن مدينة الخليل وقبر إبراهيم الخليل (عليه السلام) يوثق أخباره بقوله: "وسمعت على الشيخ أبي طاهر احمد بن محمد السلفي الحافظ بثغر الإسكندرية سنة سبعين وخمسمائة..."[74]. أو يقول: "دخلت القدس سنة تسع وستين وخمسمائة واجتمعت فيه وفي مدينة الخليل عليه السلام بمشائخ حدثوني..."[75]، وعندما زار صعيد مصر نقل بعض أخبارها عن أهلها فيقول: "وحدثني رجل كبير من أهل البلاد"[76]، وعندما يتحدث عن جزيرة صقلية

(71) الإشارات، ص 12؛ وانظر: ص 31، 67، 68.

(72) نفسه، ص 22.

(73) نفسه، ص 54.

(74) نفسه، ص30.

(75) نفسه، ص 31.

(76) نسه، ص 42.

يوثق كلامه بقوله: "وحدثني رجل من علماء البلاد"[77]، أو يقول في مكان آخر: "وحدثني من أثق بقوله"[78] وهكذا.

ولم يكتف باستقاء معلوماته من أشخاص عرب وإنما اخذ من بعض رجال الإفرنج بعد لقائه بهم، فقد أشار أثناء حديثه عن مدينة الخليل وما فيها من الآثار بقوله: "وحدثني الفارس بيرن كان مقيماً في بيت لحم معروفاً عند الفرنج لرجلته وكبر سنة..."[79]. وهذا يؤكد معرفته للغات غير العربية كما ورد آنفاً.

أما بالنسبة للقسم الثاني من مصادره، فكانت مشاهداته ومعايناته والوقوف بنفسه على الآثار، وبذلك نقل لنا أخبارا صادقة لأنه وقف بنفسه واطلع على الأحداث من خلال زياراته الكثيرة للبلدان المختلفة، وهذا ما يؤكده في كتاباته، إذ يقول أثناء حديثه عن مدينة طبرية وأعمالها: "وبطبرية قبر أبي عبيدة بن الجراح وزوجته وقد زرناه..."[80] وأثناء حديثه عن حمام طبرية يقول: "فإن مثل هذه كثير رأيناه في الدنيا"[81]، وكان يتأكد بنفسه من الأخبار التي سمعها من خلال تلك المشاهدة والمعاينة والوقوف على الآثار، فعند ما يتحدث عن الأهرامات وما فيها من العجائب يقول: "دخلت إلى هذا الهرم وصعدت إليه ورأيت هذا الحوض واصح ما قيل فيها إنما عملوها خوفاً من الطوفان وكنزوا فيها أموالهم ورقموا عليها

(77) نفسه، ص 55.

(78) نفسه، ص 57.

(79) نفسه، ص 31.

(80) نفسه، ص 19.

(81) نفسه، ص 20.

علومهم"[82] وعندما رحل إلى بلاد الروم زار موضعاً يقول أن فيه شهداء من عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ويضيف "فقصدته لا نظر حقيقة ذلك..."[83].

ولا شك: أن هذه المشاهدات والزيارات قد فسحت له المجال لأن يتأكد من حقيقة ما سمعه، ويصحح أو ينقد الأخبار التي يراها غير صحيحة أو لا تتفق مع العقل والمنطق، فعندما سمع عن أخبار الشهداء في بلاد الروم وما قيل عنهم بأنهم: "لا يبلون ولا يحلقون رؤوسهم ولايقلمون أظفارهم"، يقول بعد أن زارهم واطلع على حقيقة أمرهم: "وأما حلق رؤوسهم وتقليم أظفارهم فليس لذلك صحة، إلا أنهم قوم قد يبست جلودهم على العظام ولم يتغيروا والله اعلم بذلك"[84].

منهجه في التأليف

لا يخفى أن رحلات السائح الهروي الكثيرة وزياراته لمختلف البلدان والأمكنة ولقاءاته لأجناس مختلفة من البشر واطلاعه على العجائب والغرائب قد أثرت على كتاباته وعلى منهجه في التأليف، فجاءت مؤلفاته مزيج من الدراسات التاريخية والجغرافية والاثارية وأصبحت عوناً للدارسين في هذه الحقول، لا يستغني عنها الباحثون.

ولا شك أنه قد بذل جهداً كبيراً أثناء حياته من أجل الاطلاع والمعرفة وتسجيل ما شاهده وسمعه في بلاد كثيرة وخلال سني عمره، وقد أفصح عن ذلك في مقدمة كتابه (الإشارات) عندما قال: "وقد زرت أماكن ودخلت بلاداً من سنين

(82) نفسه، ص 40.

(83) نفسه، ص 59.

(84) نفسه، ص 60.

كثيرة... وهذا مقام لا يدركه أحد من السائحين والزهاد ولا يصل إليه اكثر المسافرين والعبّاد إلا رجل جال الأرض بقدمه واثبت ما ذكرته بقلبه وقلمه"[85]. ونتيجة لكثرة تلك الزيارات وتنوعها وطول المدة الزمنية التي استغرقها وكثرة المادة التي جمعها، فقد اعتراها بعض الأحيان شيء من السهو والغلط انعكست في كتاباته، وقد نوه عن ذلك في مقدمته قائلاً: "وإن جرى فيما أذكره شيء بطريق السهو والغلط ولا بطريق القصد فأسأل الناظر فيه والواقف عليه الصفح عن ذلك وإصلاح الخطأ وإيضاح الحق..."[86] متمثلاً فيه صفة التواضع وهي صفة العلماء الأعلام.

وقد استخدم المنهج الوصفي في كتاباته، وهذا يتكرر بشكل واضح لا سيما في كتابه (الإشارات) فقد وصف ما رآه وصف معاين ومشاهد، لذلك جاء وصفه دقيقاً لمختلف الأشياء مثال ذلك: وصفة لقبة الصخرة والمسجد الأقصى أثناء زيارته للقدس الشريف بشكل دقيق ومفصل[87]. كذلك وصفه للأهرامات التي اعتبرها من عجائب الدنيا، ذاكراً في ذلك مساحتها وارتفاعها وما بداخلها من أصنام وتماثيل[88] وغير ذلك كثير.

ويرتبط بمنهجه الوصفي طريقة عرضه للمادة فقد كانت له القدرة على عرض الأفكار بكفاءة عالية، والقدرة على الكتابة بلغة سليمة وأسلوب واضح خال من التكلف[89] لا سيما إذا علمنا أنه كان ضليعاً باللغة والأدب، له خطب ونثر وشعر

(85) نفسه، ص 3.

(86) نفسه، ص 2 – 3.

(87) نفسه، ص 25.

(88) نفسه، ص 39.

(89) التذكرة الهروية، ص 16 (مقدمة المحقق).

– كما ورد – وفوق هذا وذاك أنه اعتمد على ذاكرته في تدوين الكتب التي وصلت إلينا بسبب فقدان مجاميع كتبه وأوراقه التي دوّن فيها معلوماته وزياراته[90] مما يشير إلى مقدرته وإمكانياته الكبيرة في التأليف.

ويتميز منهجه بأنه غالباً ما كان يتأكد بنفسه أثناء زياراته قبل تدوين معلوماته من اجل إثبات صحة ذلك، فمثلاً عندما يتحدث عن البيت الأخضر الذي كان لفرعون يقول: "ولقد ذرعت طوله وعرضه وارتفاعه"[91]، والشيء نفسه عندما يتحدث عن مكة والمدينة يحاول أن يتأكد من كل مرافقها بدقة وعناية شديدين[92] وغير ذلك.

وقد حاول في جانب من كتاباته أن يربط بين الموضع الذي زاره وحادثه حصلت في ذلك الموضع من اجل زيادة التوثيق ولكي يعطي صورة صادقة عما كتبه، فمثلاً عندما يتكلم عن جبل المقطم في مصر يقول: "وهذا الجبل قيل أنه من طور سيناء الذي كلم الله عز وجل موسى (عليه السلام) عليه وهو متصل به..."[93].

كما استخدم في كتاباته أسلوب قلما استخدمه غيره وهو محاولة الربط بين آيات القرآن الكريم وبين ما يراه من عمارة وآثار، ولا شك أن الهدف من ذلك هو الزيادة في التوثيق من جهة ولكي يذكّر القارئ بأن تلك الأماكن ورد ذكرها في القرآن الكريم، وهذا ينم عن اطلاع واسع وخلفية ثقافية ودينية جيدة، فمثلاً عندما يتحدث عن بيت لحم وعمارتها وآثارها وتاريخها الموغل في القدم يذكر أن في

(90) الإشارات، ص 41.

(91) نفسه، ص 41.

(92) نفسه، ص 86.

(93) نفسه، ص 35.

كنيستها موضع النخلة المذكور في القرآن الكريم "وهزي إليكِ بجذع النخلة"[94] وغير ذلك.

لكن الملاحظ على كتاباته قد تخللها ذكر لبعض الأساطير والسحر والأخيلة التي سمعها أو رآها أثناء زياراته، وهو منهج سار عليه من سبقه من الرحالة كالمسعودي مثلاً، ويبدو أن الهدف من ذلك هو محاولة تدوين كل شيء من اجل عدم ضياع أية معلومة قد سمعها أو شاهدها، فمثلاً يقول عند زيارته لمدينة القسطنطينية: "وحدثني من أثق بقوله ... أنه رأى في بلد الريد من بلاد الفرنج نساء، ديس المرأة يماس قدميها، وإذا خلّفت المرأة ثديها إلى وراء أكتافها التقت رؤوس أناملها[95]، ويحاول تصديق هذه الرواية بقوله: "وهذا جميعه ما رأيته بل أثق بمن ذكره"[96]، إلا أن تصديقه لم يكن قطعياً ويعتريه الشك بقوله: "والله اعلم بصحة ذلك"[97]، من جهة أخرى كان يحاول تكذيب بعض الروايات بعد أن يتأكد منها بنفسه، فعندما زار جزيرة صقلية تحدث عن جبل النار المطل على البحر مضيفاً: "حدثني رجل من علماء البلاد أنه رأى حيواناً على شكل السمان رصاصي اللون يطير في وسط هذه النار ويعود إليها وقيل هو السمندل، وأنا فما رأيت إلا حجارة سوداء مثقبة... تقع عن هذا الجبل إلى ناحية البحر"[98]،ناهيك عن تصحيحه لكثير من الروايات والأخطاء التي سمعها أثناء جولاته في البلدان المختلفة، وهذا بلا شك دليل على أنه لا يأخذ جميع الروايات كما هي، فمثلاً عندما

(94) سورة مريم، الآية: 25.

(95) الإشارات، ص 57.

(96) نفسه، ص 57.

(97) نفسه، ص 57.

(98) نفسه، ص 55؛ وانظر: مال الله، علي محسن، أدب الرحلات، ص 332.

يتحدث عن مدينة نابلس وقراها يقول: "بلاطة قرية من أعمال نابلس يزعمون أن النمرود رمى إبراهيم (عليه السلام) في النار بهذه القرية، وبها عين الخضر وبها حقل يوسف الصديق، وقبر يوسف بهذا الموضع عند الشجرة وهو الأصح، وأما النمرود فالصحيح أنه كان بالعراق والموضع الذي رمي فيه إبراهيم هناك"[99]، فضلاً عن ذلك كان يعقب على بعض الأقوال والروايات كتعقيبه على منارة الإسكندرية وسبب اعتبارها من العجائب لوجود مرآة فيها تظهر عليها صورة المراكب قبل وصولها بأيام بحيث يتسنى لأهل البلد الخروج لاستقبالها[100] وغير ذلك.

ومع ذلك لابد من الإشارة إلى أن المعلومات التي قدمها كانت مختصرة وموجزة في هذا الكتاب – كما يذكر ذلك – لأنه قد فصّل فيها في كتابه الآخر "منازل الأرض ذات الطول والعرض"[101] لذلك فإنه لم يتطرق إلى شعوب المناطق التي زارها ولا إلى عاداتهم أو تقاليدهم أو لغاتهم، كما يتطرق إلى مناخ المنطقة التي يزورها كما فعل من سبقه من الرحالة والجغرافيين كابن حوقل مثلاً، وربما قد ذكر ذلك في كتبه الأخرى التي ضاعت أو التي لم تصلنا.

قيمة رحلاته الجغرافية

لا شك أن رحلات السائح الهوري في القرن السادس للهجرة أسهمت بتطور الفكر الجغرافي العربي إلى جانب ما قدمه الرحالة العرب والمسلمون الذين سبقوه،

(99) الإشارات، ص 24.

(100) نفسه، ص 48.

(101) نفسه، ص 2، 100.

لذلك فإن رحلاته كانت من الأهمية بحيث تناقلها المؤرخون مما يشير إلى شهوته ومكانته في ذلك الوقت.

ويمكن استنباط جملة أمور في حقل الجغرافية من خلال تلك الرحلات تتمثل في أنه ترك لنا مؤلفاً يمكن اعتباره معجماً جغرافياً ذكر فيه أسماء البلاد والمدن التي زارها فضلاً عن قراها وآثارها وأنهارها وخلجانها وبحارها وجبالها، كما كان يشير في اغلب الأحيان إلى منشئ تلك المدن مثال ذلك ما ذكره من عجائب في خليج الإسكندرية عند زيادة مياه نهر النيل[102]، فضلاً عن وصفه للمقياس الذي يُعرف بواسطته زيادة نهر النيل ونقصانه والذين أنشأه المأمون سنة (207هـ / 822م) وجدده المتوكل[103] وكذلك ما ذكره عن منشئ مدينة دمشق[104] وما ذكره عن الكعبة وبانيها[105] وغير ذلك.

كما أن رحلاته وثقت الكثير من الآثار سيما أنه كان يدوّن مذكراته وكتاباته على الجدران في المناطق التي رحل إليها وزارها، فقد قال ابن خلكان عنه: "ولم يصل إلى موضع إلا كتب خطة في حائطه، ولقد شاهدت ذلك في البلاد التي رايتها مع كثرتها[106] ولا شك أن هذه الطريقة لم يسلكها أحد من الرحالة والجغرافيين وكانت إحدى سماته التي اتسم بها[107].

(102) الإشارات، ص 48.

(103) نفسه، ص 39.

(104) فسه، ص 10.

(105) نفسه، ص 85.

(106) وفيات، 3 / 346.

(107) انظر مثلاً: الإشارات، ص 32 ، 44 .

وقد تناول في رحلاته مواضيع في الجغرافية الطبيعية كحديثه عن نيل مصر الذي اعتبره من عجائب الدنيا، وأنه ليس له شبيه غير نهر الملتان في الهند واصفاً ما فيه من تماسيح وفرس البحر وغير ذلك[108] كذلك وصفه للمياه التي في مدينة (سلطان وكي) من بلاد الروم والتي تتميز بصفائها وحرارتها وحلاوتها ومنفعتها لأصحاب الأمراض كما يذكر ذلك[109] فضلاً عن وصفه للمحيط الهندي وظاهرة المد والجزر التي تحصل فيه[110].

كما تضمنت رحلاته وصفاً للمسالك التي مرّ بها متتبعاً تلك المسالك بنفسه كما هو الحال في وصفه للطريق بين بلبيس (في بلاد الصعيد)وبين النوبة، واصفاً الحائط الذي يربط بين تلك المدينتين بمسافة تقدر بمسيرة شهر – كما يقول – وهو يظهر على رؤوس وبطون الأودية[111].

ويمكن أن نستنبط من كتاباته ما يعرف بـ (الجغرافية الاقتصادية) ويتمثل ذلك بما ذكره عن إنتاج مصر وزراعتها من الزهور والحبوب والفواكه والخضر بشيء من التفصيل[112].

ولم ينسَ في رحلاته وجولاته خطط المدن التي زارها، فقد حاول إعطاء وصفاً لواقع المساجد أو الكنائس أو الآثار في كل منطقة من المناطق مما يوضح التخطيط العمراني لتلك المدينة، والأمثلة كثيرة، من ذلك وصفه لخطط القدس الشريف وموقع قبة الصخرة ذاكراً أبوابها الأربعة واتجاهاتهم ثم المسجد الأقصى

(108) نفسه، ص 39.

(109) نفسه، ص 58.

(110) نفسه، ص 83.

(111) نفسه، ص 45.

(112)(113) نفسه، ص 25 ، 50 .

واصفاً طوله وعرضه، وهكذا يسترسل بذكر كل ما يحيط بالقدس الشريف وما بداخله من العيون والمساجد والكنائس وغير ذلك[113]، كما يصف بعض الخطط في مدينة الإسكندرية كموضع (القمرة) والرواق الذي بنته اليونان والباب الأخضر ومسجد التوبة والرباط ودار الاسكندر ومسجد النحّات وغير ذلك[114] ويصف بعض خطط مدينة نصيبين كمسجد أبي هريرة في محلة الزاهر ومشهد الرأس في سوق النشابين، ومسجد النبي (صلى الله عليه وسلم) عند الحضيرة، وبها قبر جبر بن اسحق قبالة باب الناصرة من الشرق وغير ذلك[115]، والشيء نفسه في ذكره لبعض خطط الموصل واصفاً مواقع قبور كبار العلماء والمشائخ والأولياء، ذاكراً باب المدينة الغربي (باب الميدان)[116]. وفعل الشيء نفسه في ذكره لخطط المدينة المنورة[117]، وفي كل ذلك لم ينسَ التوزيع الجغرافي لمواطن الأولياء والأنبياء والصحابة والخلفاء والصالحين والعلماء، ونجد ذلك موزعاً في كتاباته[118].

وأخيراً فإن قيمة رحلاته الجغرافية تتمثل في أنها أثرت فيمن جاء بعده ممن كان لها اهتمام بهذا الجانب، وممن اخذ عنه زكريا بن محمد القزويني الذي ضمّن كتابه (آثار البلاد وأخبار العباد) بمعلومات اقتبسها من كتابات الهروي وزياراته، فمما نقله عنه معلومات عن مدينة طبرية ذاكراً خططها ومياهها وبحيراتها ومعادنها وغير ذلك[119].

---

(114) (115) نفسه، ص 50 ، 65 – 66.

(116) (117) نفسه، ص 70 – 71 ، 91 – 92 .

(118) انظر مثلاً: ص 4 ، 7 ، 13 ، 15 ، 21 ، 37.

(119) آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، (بيروت: 1960) ، ص 218.

قيمة رحلاته التاريخية

لا شك أن رحلاته قد أخذت أهميتها التاريخية بسبب التنوع في الأخبار التي ذكرها مما حدا بالمؤرخين أن يتناقلونها أثناء ترجمتهم له أمثال ابن الشعار وابن خلكان وابن الصابوني وابن الوردي وغيرهم كثير[120]، فقد مزج بين الدراسات التاريخية والجغرافية، لذلك لا يستغني عنه الباحث والدارس في التاريخ، لا سيما الدراسات الحضارية وما يخص المدن وما فيها من مساجد وآثار، فجاءت رحلاته مليئة بالمعلومات التاريخية إلى جانب المعلومات الجغرافية كالإشارة إلى معركة حطين سنة (583هـ / 1187م)[121] كما أورد نص الكتاب الذي أرسله عمرو بن العاص والي مصر إلى الخليفة عمر بن الخطاب يصف فيه مصر وأوضاعها بناء على طلب الخليفة نفسه[122].

كما أورد معلومات تاريخية يمكن أن يستعين بها من يكتب في السيرة النبوية كذكره الدير الذي كان به بحيرا الراهب وبه التقى برسول الله (صلى الله عليه وسلم)[123] كما أورد معلومات عن المشاهير أمثال الغزالي وابن تومرت وامرئ القيس[124] فضلاً عما أورده من معلومات عن الأقوام البائدة مثل قوم ثمود[125] وعن الصحابة وإنتشارهم في الأمصار مع ذكر مناطق سكناهم[126].

---

(120) انظر: عقود الجمان، 5 / ورقة 19ب.

(121) الإشارات، ص 20.

(122) نفسه، ص 51.

(123) (124) نفسه، ص 17، 59.

(125) (126) نفسه، ص 10 ، 13 ، 19 ، 34 ، 36 ، 37 ، 38.

جدير بالذكر أن السائح الهروي لم يكتف بتقديم معلومات تاريخية بل إنه كان يصحح بعض تلك المعلومات التي يرى أنها مخطوءة فمثلاً عندما يتكلم عن مدينة حوران يقول: (المحجّة) من قراها وبها حجر ذكروا أن النبي صلى الله عليه وسلم جلس عليه، لكنه يضيف: "والصحيح أنه عليه السلام ما تعدى بصرى"[127].

Abstract

Al-hurawi Achievments in the Development of Arabic Geographical Thought (6 A.H/12 A.D)

Dr. A.H.Ahmad(*)

Ali bn Abi Baker Al-Hurawi Al-Mawsili. He was born in Mosul in (542 A.H / 1147 A.D) and died in Halab in (611 A.H/1215 A.D). Al-Hurawi was a geographer and traveler, He visited the Islamic neareast and wrote books on Geography and History, the first is (Al-Isharat fi ma'rifat Al-Ziyarat) which receive his notes on the travels, the second one is (Al-tathkira Al-Hurawiyya fi al □iyal Al □arbiyya) which relate with the art of war and devoted to give instructions in this matter. The later historians and geographers drew much of Al-Hurawi works.

(127) نفسه، ص 16.

(*)Department of History - College of Arts / University of Mosul.